أدامه الله ـ من حَافِظٍ عالي، ناظم لأشتات المعالي، غيث في النَّدى، ليث على العدى، حاتم قبيله، [253] وأَسَد الفوارس في غيله، مع انبساط وجه ونفس، وروضة يانعة في المجالسة، وأنس وعفاف ووقار، وحفْظٍ للحديث والعقائد باسْتِظهار. وأمره الأمر العزيز ـ أدامه الله ـ بحفر بئر في داخل قصبة مدينة بطليوس يسرب إليها ماء الوادي، استعداداً لما يخالف من الآفات والمنازلات، فمشى إليها في جملة نبيهة موفورة من الموحدين والأجناد الأندلسيين واستوطنها، وآنس أهلها من وحشتهم المتقدمة وأمنها، وجدَّ في حفر البئر المذكورة بالعدَّانين والفعلة في ذلك، وهي المعروفة عند العامة بالقوراجَّة[1]، وجلب الماء إليها، فتحصَّنت القصبة وقويت بها النفوس الآمنة. وفي مدة إقامته فيها وانتدابه دارت بينه وبين اللعين العلج جرانده[2] الساكن بشرذمته في حصن جلمانية[3] حروبٌ صبر فيها الحافظ الأسنى أبو يحيى وظهر، واستبد بدفاع العلج اللعين وظفر، ودام على جهاده شهوراً، إلى أن تحيل العلج اللعين في خدعة من الحرب صنعها وأوقعها، واستدعى جملة ذميمة كبيرة من أهل شنترين النصارى وأتباعه، ووصل بهم إلى موضع أكمنهم فيه، ومشى هو في جملته المعلومة المذمومة، وأغار على لصق بطليوس فركب الحافظ أبو يحيى وأصحابه والأجناد معه مسترعين في اتباعه، وفرَّ أمامهم العلج مظهراً الروع وطلب النجاة [254] في إسْراعه حتى وصل إلى موضع الكمين اللعين، فمال المسلمون وانهزموا، فأسر العلج اللعين من المسلمين جماعة، ومن أصحاب الحافظ الأسنى أقواماً فيهم أبو عبد الله

---

(1) القوراجة (coracha) بالاسبانية أو القوراسة (Couraça) بالبرتغالية عبارة في الأصل عن ركن في الجدار يبرُزُ عن الحصن لحماية منطقة في حالة حصار يوجد فيها بئر يستمد ماءه من واد مجاور لاغاثة الذين قد يهدِّدهم التطويق، وسنرى أنه عند الاستيلاء على شِلب، كان الاستحواذ على القوراجة مما أرغم المطوقين على الاستسلام تحت ضغط العطش.

Huici: Historia Politica P. 240. Com 1.

(2) يسميه كايانكوس: فرنانده انظر صفحة 518 - 519.

(3) جلمانية (Julumena) على مقربة من بطليوس. Huici P. 238 - 242.

محمد بن الشيخ الشهير أبي حفص بن تيفرجين[1]، وعليُّ بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي[2] أحد أصحابه المختصين به. ففدى أكثرهم من الأسر الذي كانوا فيه عند النصارى أهلكهم الله من مال نفسه، وأجبرهم إلى الإسلام، وانقذهم من ربقة الكفرة أهل الأصنام، وأما عليُّ بن صاحب الصلاة ففداه بثلاث مائة دينار[3] جَشَمية[4] في أسرع مدة، وأعطاه كل ما سلب من فرس وآلةٍ وحلية وحالة، فشكر فعله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه، وثبتت له هذه الفضائل المحمودة، والجلالات الموصوفة المسرودة، عند الموحدين أعزهم الله، وحاز أجْرها عند الله تعالى، ولم يزل ذكرها بالمحامد

---

(1) يذكر ابن صاحب الصلاة هنا أن كنية أبي حفص هي أبو عبدالله، وأن اسمه محمد وأظن أنه هو نفسه الذي ذكر بعد في مناسبات كثيرة بكنية (أبي محمد) واسم عبد الله وإن خطأ وقع فيه الناسخ هذه المرة، ويعتبر الشيخ أبو حفص من أهل خمسين من أهل تينملل وهو يحمل اسم تفراكين أو تافراجين في مصادر أخرى. ابن صاحب الصلاة ص 441 - 452 - 500 البيذق أخبار المهدي ص 33 - 34 - 35.

(2) لم نقف على ترجمة لابن صاحب الصلاة هذا في معاجم رجال الفترة الموحدية، وليس هو بالتأكيد عليا بن محمد بن عبد الودود الذي ترجم له ابن الابار في تكملته لأن هذا من أهل مرج بيطر وصاحب الصلاة والخطبة بها وقد توفي في سن متأخرة (633) أي سبعون سنة بعد الكمين، نعم يمكن أن تكون لعلي هذا صلة بابن صاحب الصلاة الذي ورد على مراكش لينظر في فك أسْر أهله من أيدي الروم، وقد ذكر كايانكوس احتمال أنه أخ للمؤلف عبد الملك ابن صاحب الصلاة. ابن الابار. التكملة كوديرا رقم 1904 ـ ابن الزيات، التشوف، ص 167.

(3) دأب الناسخ على كتابة الدينار بحذف الألف. وانظر التعليق رقم 5 ص 215.

(4) يصف ابن صاحب الصلاة العملة أحياناً بالجَشَمية، وهو ما نجده كذلك عند ابن عذاري في بعض المقاطع نقلاً عن صاحب المن بالإمامة، وعندما نستشير كتب اللغة نجد أنها أي الدراهم الجشمية تعني الدراهم الرديئة. ثم عندما يستشير المرء المصادر القليلة التي عنيت بالعملة أيام الموحدين نجد أن بعضها يؤكد أن بعض الخلفاء الموحدين كانوا فعلاً يصنعون من النحاس ما يعطونه ـ زيفاً ـ اسم الدينار الذهبي. وقد ترجم كايانكوس الجشمية (التي ساقها بالحاء بدل الجيم) بالذهبية (Gold Dinars).
راجع التعليق 1 ص 292. لسان العرب مادة جشم. ابن عذاري ص 2 ـ بروفنصال.

Provençal: Notes d'histoire almohade. hes. TX 1930 P. 51 — 90.

Bel: Contribution à l'etude des dirhems de l'Epoque almohade.

Hes. TXVI 1933 P. 7.

وحسن المشاهد يتوالى. وحمد له أبوه الشيخ المرحوم جهاده واجتهاده، ورعية أصحابه وأجناده، وبعد هذا انصرف عن بطليوس ودام على مكارم الأخلاق، الشايعة له في الآفاق، إلى أن توفي رحمة الله عليه.

رجع الخبر: وعندما اتصل إبراهيم بن همشك بمحمد بن مردنيش أميره قبل، سُقط في يده، وتحقق أن ساعده قد كسر مع عضده، فحملته الانفة والعجلة أن يأمر [255] قواده وأجناده المجاورين في بلاده لبلاد ابن همشك بالفتنة معهم، وأن يضيقوا عليهم متَّسعهم، فامتثلوا ذلك فدامت الفتنة مدة أكثر من سنة كاملة وزادت بينهم الشحناء على الاستدامة، وألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ولم يزل ابن همشك يستغيث إلى الموحدين - أيدهم الله - من عدوه، ويستنصر بهم عليه، ويستصرخهم إلى غزوه. وفي هذه السنة أيضاً استدعى سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أخويه السيدين أبا إبراهيم اسماعيل الوالي بإشبيلية وأبا اسحاق إبراهيم الوالي بقرطبة، واستدعى معهما الشيخ الحافظ أبا عبد الله ابن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم الوالي باغرناطة مع حفاظهم وعمال البلاد، ليصلوا إلى الحضرة مراكش حرسها الله، فأسرعوا إلى استدعائه العالي، وتحركوا من الأندلس في أول جمادى الأولى بموافقة شهر دجنبر [1] العجمي من السنة المؤرخة عام أربع وستين وأقاموا في الحضرة إلى أول عام خمسة وستين وخمس مائة.

وانصرف السيدان المذكوران وصحبهما أخوهما السيد أبو علي الحسن والياً على سبتة وأقام الحافظ أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم بالحضرة على ما ذكرته، وبقيت مدينة اغرناطة تحت حكمه وأمره وعياله فيها حتى أجاز [256] في صحبة السيد الأعلى أبي حفص على ما ذكرته [2] وأذكره

(1) أول جمادى من السنة يوافق 31 يناير 1169 حسب جداول الدكتور كاطنوز.
(2) عند ترجمة الشيخ بن أبي ابراهيم ص 152.

إن شاء الله [1]. وفي هذه السنة أيضاً اختلف الهواء بمراكش فمرض [2] أكثر السادات وكثير من الناس [3].

سنة خمس وستين وخمس مائة

(تعيينات جديدة في سلك الولاة)

في أول شهر صفر منها ولَّى سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أخاه السيد الأجل الأسنى أبا علي الحسن مدينة سبتة وأنظارها، وجبال غمارة وأقطارها، وتحرك إليها من الحضرة الإمامية وانصرف السيدان الأجلان معه: أخواه أبو ابراهيم اسماعيل إلى إشبيلية وأبو أسحق إلى قرطبة على أولهما [4]. وصحبهم بالأمر العزيز أدامه الله الحافظ الأسنى أبو يحيى زكريا بن يحيى بن سنان أحد أبناء أشياخ خمسين [5] النبهاء، الحافظين المقدمين النجباء الأمناء، والياً عن الأمر العزيز على حصن طبيرة [6] وشنتمرية [7]، والعليا [8]،

(1) يعني بعد قليل.
(2) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر هذا «الاختلاف» الذي جرى سنة 564، هذا وقد استهدفت مراكش سنة 571 لطاعون ذهب ضحيته عدة سادة فيهم أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا ثم الشيخ حفص جد الأمراء الحفصيين. ابن عذاري 101. ابن خلدون. السادس ص 501.
(3) لقد كان ابن صاحب الصلاة في هذه الأثناء في الأندلس، ولذلك فإنه لم يتمكن من إعطائنا وصفاً لحفلات عيد الفطر مثلاً لسنة أربع وستين وخمس مائة، وقد كان في جملة الشعراء الذين وردوا لتقديم التهاني أبو جعفر أحمد الوقشي الذي أنشد ميمية طويلة في الموضوع.
الحلة السيراء نشر دوزي ص 231 — 230.
(4) يعني على ما كانا عليه في بداية الأمر.
(5) راجع التعليق رقم 5 ص 68.
(6) (Tavira) انظر التعليق رقم 1 ص 283.
(7) شنتمرية (Santa Maria) مدينة تقع على شاطىء البحر الأعظم المحيط وهي المعروف اليوم باسم (فارو) Faro إليها ينسب الأستاذ أبو الحجاج الشنتمري.
الادريسي 180 - الروض المعطار 114 - 115 - الحلل السندسية أول 77.
(8) العليا: تقع بين اشبيلية ومدينة شلب ومنها الأديب المشهور كثير العلياوي.
المراكشي، المعجب ص 374 - المغرب في حلى المغرب أول ص 380 - 398.

بغـرب الأندلس، فَعـلا ذكـرُه في الحفـاظ وتميز عنـد أميـر المؤمنين بن أميـر المؤمنين بحسن النظر والايقاظ والتحفظ من المشكـلات والاحفاظ[1]، فـوجهه لحفظ طبيرة المذكورة من كل مفاتن، وغادر منافق مباين، فـوصلها في صحبة السيد أبي إبراهيم صاحب إشبيلية، واستقلَّ بما به فيه تخيَّل، وله أهل، وناب فيها المناب الحسن، [257] وعرض أهلها من خوفهم وفتنتهم الكَرى اللذيـذ والوسن، وأقام فيها بحسن سياسة ـ وإن شئت فرياسة ـ مـدة اثنتي عشرة سنة حتَّى نقله الأمر العالي منها إلى أشغال مدينة مرسية على ما أشرحه في ذكره إن شاء الله[2]، وإنما اختار أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا الحافظ النبيه لهـذا الحصن وخصه به من بعد فتنته وحربه لثقته عنده، وبقظته وذكائه، لضبـطه وحزامتـه، ولأنه من أحـد الـطلبـة المتفننين في العلوم المتـطلبـة على مذاهب الأيمة بالمعقول والمفهوم.

ذكر الأحداث في هذه السنة

(انتقام أدفونش، وانحباس المطر، وزلزال الأندلس)

وفيهـا خرج العـدوّ النصراني القمط نـونـه ظِنّر ادفـونش الصغيـر[3] ابن السُّلَيْطن لعنه الله من طليـطلة دمَّرهـا الله بعسكره الـذميم، وأغار على فحص رنده وجبالهـا، وفحص الجزيـرة الخضراء وجبـالها أيضـاً، ووصل إلى البحر وقتل المسلمين في تلك الأقطار والأنظار، وأسرهم فيها واكتسح سائمتهم.

(1)التحفظ: التيقظ، والاحفاظ: الإغضاب لعله يقصد إغضاب الخصم.

(2)دون شك في السفر الثالث.

(3)أذفونش الصغير AL Fonso VII) EL Rey chico). هُوَ في الحقيقة حفيده وليس ابنه وقد جرى المؤرخون على النسبة لأقوى رجـل في الأسرة سيـما ووالده صَانشو لم يعمـر لم يعمر أكـثر من سنة. Dozy, Recherches page 387 — 388.
راجـع التعليق رقم 1 صفحـة 96 والتعليق رقم 5 صفحـة 153. والتعليق رقم 3 صفحـة 284 والتعليق رقم 2 صفحة 286 والتعليق رقم 1 صفحة 295.

وفيها توقف المـطر للاحتـرات بالأنـدلس حتى إلى شهر دجنبـر العجمي ونزل وحرث النـاس ـ. وفيها حـدثت زلازل عظيمـة عند طلوع الشمس وعنـد زوالهـا في الظهـر من الأيام بتـاريخ شهـر جمـادى الأولى من السنـة المؤرخـة وتوالت على مدينة [258] اندوجر مدَّة أيام حتى كادت أن تتحول وتغوص بها الأرض، واتصل بعد ذلك بمدينة قرطبة واغرناطة وإشبيليـة، وجميع الأنـدلس فكـان الرائي بعينـه يرى حيـطان الديـار تضـطرب وتميـل حتى إلى الأرض ثم ترتفع وتـرجع على حـالها بلطف الله تعـالى، وتهدَّمت من ذلـك مواضـع ديار كثيرة في البلاد المذكورة وصوامع مساجد[1].

(تضييق جرانده على بَطليوس)

وفي شهر رجب الفرد من هذه السنة زاد ضعف مدينة بطليوس من عـدم القـوت فيها بـإلحاح العلج اللعين (جـرانده[2]) عليهـا بالفتنـة وقـطع الـداخـل بالمرافق إليها، فنظر لها الموحدون الذين كـانوا بـإشبيلية في ميـرة موفـورة من الطعام والآلات والمحلات للحمل إليها، فاجتمـع في ذلك نحـو خمسة آلاف دابَّة موفورة بما ذكر، وتقدم عليها للتوصيل الحافظ أبو يحيى زكرياء بن[3] علي بعسكر إشبيلية وجهـاتها من المـوحدين والأجنـاد الأندلسيين، فـوصل بـالميرة المـذكورة وبـالعسكر معهـا إلى مقربـة من بـطليـوس فخرج اللعين جرانـده بجمعه الذميم من النصارى وأهل شنترين النصارى معه. فتحاربـوا مدة طـويلة من النهـار، ثم انهزم المسلمـون وقتلوا وأسروا وانتهبت الميـرة وذهبت بكليتها وكان ذلك في يوم الخميس السادس[4] والعشـرين من شعبان المبـارك من سنة

(1) لم يتحدث المؤرخون عن هذا الزلزال العظيم الذي وصفه المؤلف وصفاً دقيقاً، نعم اهتم ابن أبي زرع بزلزال سنة 472 الذي كان من أعنف الرجات الأرضية التي عرفها المغـرب. القرطـاس ثان طبعـة ص 96.

(2) انظر التعليق 2 صفحة 274.

(3) نفس ما ينقله ابن عذاري في البيان المغرب ص 73.

(4) Huici T.I page 241.

خمس [259] وستين المؤرخة، واستشهد في ذلك اليوم الحافظ زكريا المذكور، ووصل الخبر إلى الشيخ المرحوم أبي حفص بقرطبة وإلى الموحدين بإشبيلية فساءهم ذلك وعرفوا بذلك الحضرة العلية أدام الله تأييدها.

(مرض الخليفة واستصراخ ابن هَمشك بالموحدين ضد ابن مردنيش)

وفيها مرض أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه، وضعف عن الحركة للغزوة التي وعد بها جميع الموحدين بالأندلس من الوصول إليهم في كتابه الذي وجَّهه إليهم في صحبة الشيخ المرحوم أبي حفص على ما ذكرته وقيدته، فتأخرت حركته بسبب ضعفه، لكنه رضي الله عنه لم يزل مع ضعفه في استدعاء العرب من أفريقية والموحدين من كل جهة وأعطاهم وكساهم وحين استقل انجز عدته على ما أذكره بعد هذا إن شاء الله(1)، وفيها أيضاً ألحَّ محمد بن مردنيش بفتنته على جهة بلاد إبراهيم بن همشك واستكفى عليه بعسكره الشرقي وبالنصارى حلفائه، فاستغاث ابن همشك بالموحدين وكثر صراخه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وشكا حاله وأوجاله. وكتب الشيخ المرحوم أبو حفص مِنْ قرطبة إلى حضرة الخلافة معيناً لابن همشك بكتابه ومصدقاً له فيما استغاث به من عدوّه، فاجتمع الرأي الموفق السعيد، والنظر الحميد، أن يتقدَّم السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه بالخروج [260] من حضرة مراكش حرسَها الله بعسكره الضخم اللُّهَمّ، المظفر الشهم، لتلافي جزيرة الأندلس، وغزوا بن مردنيش والنصارى معه وحصاره في مرسية قاعدته، ومقارعته في داره وحاضرته، فخرج من حضرة مراكش لذلك حسبما أذكره.

(1) راجع صفحة 272 الآتية وما بعدها...

ذكر الغزوة الثانية من السيد الأعلى أبي حفص بن الخليفة رضي الله عنهم وايدهم لمحمد بن مردنيش في عقر داره وحصارهم له في داخل مرسية وملازمتهم المنازلة له حتى فتحت اكثر بلاده بعد خمسة أعوام من المنازلة في الغزوة الاولى المذكورة.

وانه لما كان ما ذكرتُه خرج السيد الأعلى المجاهد السعيد المرحوم أبو حفص من حضرة مراكش في أول شهر ذي القعدة، الموافق لشهر أغشت(1) العجمي من سنة خمس وستين المؤرخة مستعجلاً مسارعاً لنصر جزيرة الأندلس، ولمن استصرخ به ممَّن وحَّد واستَنَد، ولغزو من عاداه من عِدَاه. وصحبه في هذه الغزوة السعيدة على عادته أخوه السيد الأسنى أبو سعيد بن أبيه الخليفة رضي الله عنه وجماعة علية من أبناء أشياخ الجماعة رحمهم الله كأبي [261] عبد الله بن أبي إبراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن تيجيت ومن يليهم من أمثالهم من نمطهم، ومن حُفّاظ أهل خمسين كذلك. واختص من الصنف الأندلسي العاقل الداهية أبا محمد سيدراي بن وزير، وأخاه أبا الحسن علي بن وزير وأشياخاً فرساناً أبطالاً من الأجناد الساكنين بحضرة مراكش من أهل الأندلس، انتخبهم واستصحبهم مع نفسه لمعرفتهم بالأندلس وحروبها، ولمذاكرتهم في مشاورتهم في محاولة ما يحتاج إليه من الأمور، ومعرفة الثغور، واستخلص الدعاء لله في الاستخارة له في أمره، واستجلاب نصره، على أعداء الله وأعدائه، وصفّى نيته للجهاد في إعلاء دعوة الإيمان وندائه، فنهض والسعد أمامه، يقدم أعلامه، حتى أجاز بعسكره الشهم البحر إلى الأندلس. ووصل إلى مدينة إشبيلية في أول عام ستة وستين فأراح بها للنظر والاجتماع مع الشيخ المرحوم أبي حفص، فوصل إليه بها من قرطبة

(1) أول ذي القعدة من عام 565 يوافق اليوم 17 يوليه 1170 حسب جدول الدكتور كاطنوز.

وفي صحبته إبراهيم بن همشك بأصحابه المختصِّين به، واجتمعوا خير مجتمع، بأحسن مرأى ومسمع وتشاوروا في الرأي، وتذاكروا إلى أين يكون أول الغزو بالمشي والسعي، فرأوا أن يتوجه السيد الأسنى أبو سعيد في سنة ست وستين وخمس مائة أولاً إلى مدينة بطليوس لإحياء إسمها بعد مماتها، وإخراج النصارى بالدّفاع [262] عن جهاتها، فتوجَّه إليها بعسكر مبارك من الموحدين - أنجدهم الله - ومن أهل الأندلس والعرب - وفرهم الله -، ومعهم من أشياخ رؤساء الأندلس أبو محمد سيد رأي بن وزير، وأبو العلا بن عزون لمعرفتهما بثغر بطليوس المذكورة، والثقة بهما في نصيحتهما المشهورة، فوصلها في أيمن طالع وقت، وبأيمن حال في كل وجهة وأسعد بخت. وكان من الاتفاق الحسن ببركة هذا الأمر العزيز أن وافق وصوله خروج فرنانده الببوج بن ادفونش السليطن[1] المذكور في هذا التاريخ بعسكره قاصداً بطليوس ليسترجع ملكها وأخذها من أيدي المسلمين. لما رأى ابن الرنك عدوه قد قارب التغلب عليها مرة ثانية بإلحاح جرانده على إصرارها. وقال في نفسه: «إنه أولى بها دفاعاً لعدوه!» وصح خروجه عند السيد الأسنى، وانه قد وصل بعسكره وآلات سكناها بالفحص المعروف بالزلاقة[2] على . . . . .[3] من بطليوس، فوجه إليه السيد الأسنى أبا محمد بن وزير، وأبا العلا بن عزون، وأشياخ الأجناد العقلاء الأولياء للقائه وائتلافه على أوّله، واستفهامه عن خروجه، وهل هو باق على الصلح المربوط معه أم لا؟ فوصلوا إليه ورحَّب بهم وتكلموا معه فيما وفدوا فيه فقال: «إنما خرجتُ لحمايتها وإمساكها لأمير

(1) راجع صفحة 230 و 231 مع ما عليهما من تعليقات.

(2) الزلاّقة (Sagrajas) وتقع في الشمال من بطليوس قريباً منها على ضفاف نهر كير يرُو (Guerrero) وفيه وقعت المعركة الشهيرة في الثاني عشر من رجب 479.
الروض المعطار ص 83 — 84 — 85 — 95.

(3) هنا بياض في أصل المخطوط ويظهر أن المؤلف كان يريد أن يحدد بالأميال التي تفصل بطليوس عن الزلاقة، هذا وأن الزلاقة تقع على مسيرة ثمانية أميال تقريباً من بطليوس.
دائرة المعارف الإسلامية (عاشر) ص 370.

المؤمنين بن أمير المؤمنين[1] [263] أيدهم الله» فشكروه وعرضوا عليه الاجتماع مع السيد الأسنى وتجديد الصلح بينهما، فأجاب إلى ذلك فوصل إلى مقربة من بطليوس في جملته الخاصة به من أقماطه، ورجال مدينة سبطاطة، والتقى بالسيد الأسنى: هذا راكب على فرسه، وهذا راكبٌ على فرسه، وتكلم أبو محمد بن وزير[2] وأبو عزون مع ترجمانه بما يصلح من الصلح بينهما حتى كمل الغرض المراد، واتصل العهد والسداد، وانصرف فرنانده الببوج بعسكره إلى بلاده وكان تيسيراً من الله تعالى وفتحاً وتبشيراً من الله تعالى. ونهد السيد من موضع اجتماعه بعسكره المبارك إلى حصن جلمانية ونازله وفتحه عنوة، وأجلى الله تعالى جرانده الكافر اللعين منه حتى أخذ بعد ذلك، وهدمه وانصرف وقد أحيا بطليوس وأجلى عنها كل بأس إلى إشبيلية مؤيداً مسدداً سالماً، وبالبشائر قادماً، وذلك في ربيع الأول من سنة ست وستين وخمس مائة، وكان أبو محمد بن وزير يحدث أصحابه بما عاين في هذه الغزوة من مكارم السيد الأسنى أبي سعيد ويطنب في وصفه، ومدحه ووصْفه، ويقول من بعض مكارمه واهتباله برجاله وجلب نفوسهم إلى حيّه: «إنه لما وجهني إلى فرنانده الببوج المذكور مع الارسال الماشين دخلت على الببوج في خبائه ومعه أقماطه وأشياخه [264] النصارى فتكلم معي بلسانه العجمي، فقلت لترجمانه: «لست أفهم العجمية!» وإنما قلت ذلك كتماناً مني وحيلة، لأفهم من كلامه ما يريده من خير وشر، فترجم له ترجمانه عني الغرض الذي وصلت فيه على ما تقدم، ولاطفته في الصلح حتى كمل. وفي أثناء الجلوس معه سرق أرذال النصارى المتصرفين في الخباء عمامة رأسي عند غفلة مني! فلما وصلت إلى السيد منصرفاً مع الببوج رأى رأسي دون عمامة، فسألوني عن ذلك فوصفت له الحال وأنا ضاحك من رجال النصارى وسرقاتهم فأخذ بفضله وسيادته عمامة رأسه ودفعها إليَّ واستدعى خديمه

(1) راجع ص 244 من الكتاب المخطوط أو صفحة 380 ـ 381 من المطبوع

(2) عبد الهادي التازي: تاريخ المغرب الديبلوماسي: المجلد السادس (المغرب في عهد الموحدين).

حماداً العصري[1] وأمره بسوق عمامة أخرى لرأسه فقبّلت يده وزاد حبه في قلبي وسؤدده.

ذكر حركة السيد الاعلى، المجاهد الاسنى، ابي حفص من اشبيلية الى غزوته المذكورة لابن مردنيش بعد انصراف السيد الاسنى ابي سعيد من مدينة بطليوس على البشر الذي صنع الله تعالى له.

ولما انصرف السيد المذكور وتجمع مع أخيه السيد الأعلى ومع الشيخ المرحوم أبي حفص أعادوا رأيهم وعزمهم [265] على غزو عدوهم ابن مردنيش، فتحركوا من اشبيلية بجمعهم الموفور المنصور إلى مدينة قرطبة، وفي صحبتهم ابراهيم بن همشك في أول شهر رجب الفرد من سنة ست وستين المؤرخة. فلما وصلوا إلى قرطبة أقاموا فيها أياماً ونهدوا على تصميم الخير بعزمهم في غزوهم فأول مدينة نزلوها من بلاد ابن مردنيش مدينة قيجاطة[2] ففتحها الله تعالى بعد قتال ونزال، وتقبض على قائدتها الشرقي فضربت رقبته برأي ابن همشك، ثم أقلعوا منها مغيرين على بسائط بلاد مردنيش في طريقهم، مستصحبين الظفر في عدوهم، مواصلين لمن بادر بالتوحيد والطوع وأمن بتصديقهم دون منع حتى وصلوا مدينة مرسية، فنازلوها واستغلبوا حصن الفرج[3] الذي كان منتزه ابن مردنيش واستباحوا المرباضات والبساتين وما اتصل من البسائط والقرى بالبلاد القريبة بتلك الموسط، وابن همشك مع الموحدين يدل على عورات عدُوّه، وينكيه في رواحه بالغزو وفي

(1)لم نجد ذكراً لحماد هذا في حاشية الخليفة الموحدي عند المراجع الأخرى.

(2)قيجاطة (Quesada) تقع في الشمال الشرقي لمدينة جيان شرقي قرباقة وقد تسمى قيشاطة. الروض المعطار ص 165. والترجمة بالفرنسية ص 198.

(3)حصن الفرج (Aznalfarache) وهو غير الحصن الذي جدده يعقوب على ضفة الوادي الكبير بعد عودته من غزاة شلب والذي سماه حصن الفرج. المراكشي ص. 280 ـ 292 ـ ابن عذاري 185 مخطوط.

غدوه، وظهرت الغلبة على ابن مردنيش وعلى عسكره بالحصار. وظهر الخور على أحلافه الكفار، وكل ما استدعى النصارى من بلادهم أفردوه وأسلموه وأخلفوا وعده، واستقلوا رفده، فلم يصل إليه منهم إلا نحو أربع مائة فارس وجههم إلى مدينة لورقة لضبط قصبتها مع قائده الأخص به الأمين عنده [266] أبي عثمان بن عيسى[1] فضبطها وحصنها بهم، فلما كانت هذه المنازلة وطالت، وظهر الخلل في حال ابن مردنيش واعتلت نفسه بالفكر والمرض، ورأى الناس أن حاله قد حالت وزالت، قامت العامة من أهل مدينة لورقة على النصارى وعلى من معهم من أصحابهم بدعوة الموحدين وقاتلوهم في المدينة، فاحتصنوا بجمعهم في قصبتها، ووثقوا بمنعتها، فخاطب الناس أهل لورقة حضرة السيد الأعلى المجاهد أبي حفص بمحلته على مرسية، يعلمونه بقيامهم بدعوة التوحيد، ويستصرخونه بنصره لهم على عدوهم الشديد، فاقلع السيد المؤيد عن مرسية قاصداً عونهم واحتل مدينة لورقة وملكها، واستوطن بعسكره المنصور أرباضها ورياضاتها وبسائطها، وبقيت القصبة بمن فيها من الكفرة وعليهم القائد أبو عثمان بن عيسى ضابطاً لها بهم، فكان من بركة هذا الأمر العزيز العلي أن خرجت سرية من المحلة المؤيدة من أجناد الموحدين للغزو في البسائط على عاداتهم، فاتفق لهم أخذ الإبن محمد بن القائد أبي عثمان بن عيسى في غزوتهم، فاستاقوه برمته ممسوكاً إلى السيد الأعلى أبي حفص، فأمر أن يحمل إلى أبيه بقرب من القصبة وعساهُ يُراعيه، ويتخلى عن القصبة المضبوطة فيه، فامتنع من [267] الإجابة إلى[2] ذلك، وطال الحصار على النصارى في القصبة حتى نفذ لهم

(1) ابن عذاري: ابن عيسى، انظر صفحة 75 من البيان المغرب.

(2) كثر في التاريخ ترديد أحداث من هذا النوع وخاصة في تاريخ اسبانيا الإسلامية، فقد حكى التاريخ أنه لما ثار دون خوان (Don juan) شقيق الملك سانشو الرابع Sancho IV على أخيه وأخذ ينازعه عاهد العرب وهاجم طريقه بجيوش المسلمين، فتحصن فوسمان Guzman حاكم طريفة من قبل سانشو الرابع في حصنها وامتنع فَوَقَعَ ابنُه في يد ضُون خوان، وكان خارج الحصن فتهدده هذا قائلاً: «إما أن تسلم وأما قتلت ولدك» فأبى التسليم وقتل الولد! وقد سجل تاريخ =

الماء والقوت فتغلبوا على أبي عثمان بالقول والكلام حتى أذعن بالطوع لهم في رأيهم وتوسط ابن همشك لأبي عثمان في النزول عن القصبة بمن معه على الأمان والصفح في ذلك، حتى كمُل الحديث فنزل ابن عيسى المذكور عن القصبة مع النصارى وأصحابه وأجلوها على ما ذكر، ودخلها الموحدون أيدهم الله واحتووها، ودفع الابن محمد إلى أبيه مسلّماً محفوظاً مكرماً، ورجع أبو عثمان القائد مع أصحابه وابنه إلى مرسية: إلى ابن مردنيش وانصرف النصارى الذين كانوا بلورقة إلى بلادهم طالبين النجاة بنفوسهم بما عاينوه من بؤسه وبؤسهم. ولما كمل فتح لورقة على ما ذكرته ومنازلة مرسية، أعلم السيد الأعلى بذلك حضرة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فوصله الجواب بكتاب كريم من أمير المؤمنين يأمره أن ينصرف بعسكره المؤيد إلى إعادة حصار مرسية ويشكره، فانصرف السيد الأعلى المذكور والموحدون أعزهم الله إليها ولازموا حصارها وحصار جنباتها وما قرب منها، واستولى على فتح ما جاورها من البلاد وثقف البلاد بالموحدين، وأمرهم في أعمالهم بإقامة الدين.

[268] الاستيلاء على البلاد التي بيد ابن مردنيش وطوعها للموحدين

ايدهم الله بعد انصراف السيد الاعلى ابي حفص من لورقة الى حصار مرسية.

ولما انصرف السيد المؤيد المذكور من فتح لورقة إلى حصار مرسية طاع له أهل حصن إلج[1] ووحَّدوا، ووصلوا المحلة تائبين، ووصل معهم أكثر

= العرب حادثاً قريب بهذا، عندما أبى السموأل بن عاديا تسليم دروع امرىء. القيس إلى الحرث بن أبي شمر الغسّاني.

(1) حصن إلج (ELCHE) يقع غربي مرسية. الروض المعطار ص 31 أحمد الغزال، نتيجة الاجتهاد ص 72 نشر الفريد البستاني، تطوان 1941 ـ خريطة. Huici 256.

أهل الحصون والمجاورين لهم المنضمين إليهم فعُفِي عنهم، وامنوا وأحسن اليهم، ثم إن السيد الأجل وجَّه عسكراً مباركاً من الموحدين أعزهم الله، ومن العرب والجند، وقدم عليهم الشيخ الحافظ أبا عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم إلى مدينة بسطة، ففتحَها الله على يده، ودخلت في طاعة الموحدين، وأمنوا أهلها مثل تأمين غيرهم، واتصل عند أهل الشرق هذا الفتح، والأمان لهم والصفح، فبادر أهل جزيرة شوقر[1] بالطاعة والتوحيد، وقاموا على النصارى الذين كانوا عندهم بدعوة التوحيد، وأخرجوهم عن بلدتهم، ووصلوا بأجمعهم إلى السيد الأعلى بالمحلة الوئيدة بمرسية، فوجه معهم والياً عليهم قائدهم قبل وكان قد وحَّد وبادر: أبو أيوب بن هلال الشرقي[2] فنهض معهم وضبطها للتوحيد، [269] ضبط الحازم الفارس المقدام الصنديد، فلما أقلع السيد عَن مرسية على ما أذكره إن شاء الله، نازله ابن مردنيش في جزيرة شوقر بعسكره فما راعه نزاله، ولا هابه قتاله. ولمْ يزل ابن مردنيش في حصار في عقر داره، ونكبات تترادف عليه من انقلاب اخوته عن طاعته واصهاره، وهو مكبود مفؤود، قد أسلمه القريب والبعيد، وظهر من يوسف بن مردنيش لأخيه محمد في منازلته جزيرة شُوْقر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه في قتال ابن هلال عدوه، وتحقق من أخيه الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف، فزادت كيده ألماً، واتصلت نفسه سقماً، فرجع إلى مرسية لغير طيه، ولازمته العلة المزمنة بأسباب المنية، على ما أذكرها بعد هذا. **رجع الخبر.**

(1) شوقر كذا يرسمها الناسخ في كتاب ابن صاحب الصلاة وان كانت في سائر الكتب التي بين أيدينا ـ وفيها نزهة المشتاق فيما يليها ـ تكتب بدون واو، وتضبط بضم الشين وتسكين القاف، وهي قريبة من شاطبة، يحيط بها الوادي، والمدخل إليها في الشتاء على المراكب وفي الصيف على مخاضة، وفي إحاطة الوادي الوادي بها ينشد ابن خفاجة وأبو المطرف بن عميرة بعض الأشعار، وقد كانت جزيرة شوقر تطلق أيام الدولة الإسلامية على الجزيرة الواقعة في نهر شوقر Rio Ucar قبل مصبه في البحر المتوسط جنوب بلنسية، وهو الإسم الذي استُعير فيما بعد لبلدة (Alcira).
الروض العطار ص 102 — 103 — 104. الحلل السندسية أول 109 ـ 110 ـ الإحاطة لابن الخطيب نشر عبد الله عنان 185 ـ ويسي ص 157 ـ بروفنصال.

(2) هو محمد بن هلال، وقد نعته ابنُ الأبّار بذي الوزارتين، انظر الحلة السيراء ص 237.

(فيئة صاحب البسيط إلى الموحدين)

وفي خلال هٰذه الغزوة المذكورة المنصورة والحصار قام بالمرية[1] محمد بن مردنيش[2] المعروف بابن صاحب البسيط [3] ابن عم محمد بن مردنيش [4] المذكور، نعم وصهره على أخته بدعوة الموحدين أيدهم الله وأعانه على قيامه محمد بن هلال[5] صاحبه، وتقبضا على الوالي بها من قبل ابن مردنيش: ابن مقدام[6] ووحَّدوا، وخاطبوا بذلك إلى السيد الأعلى أبي حفص بالمحلة المؤيدة، فوجه إليهم عسكراً من الموحدين أعزهم الله معيناً لهم، وبقبولهم والشكر [270] على فِعْلِهم، ونفذ الأمر بقتل ابن مقدام القائد المقبوض عليه فقتل. واتصل هذا الخبر بابن مردنيش فأمر بقتل أخت نفسه[7] زوج محمد بن عمه المعروف بابن صاحب البسيط المذكور، وبقتل بنيه منها، وقطعه رحمه عنها، فأخذهم ابن الراعي الموكل بالعذاب منه بالناس وحملهم الى البحيرة[8] المتصلة بالبحر بقرب بلنسية، وأدخلهم في قارب مع نفسه،

---

(1) المرية (Almeria) أنظر التعليق رقم 2ص 78 .

(2) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد، صاحب المرية، وقد ذكره ابن الأبار في الحلة السيراء إثناء ترجمة أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي، وذلك عندما استطرد بذكر ضعف أمر أبي عبد الله محمد بن سعد الأندلس وانسلاخ ابن همشك صهره بجيان وكذا ابنُ عمه أبي عبد الله بالمرية عن طاعته. الحلة السيراء، ص 236٢

(3) البسيط (Albacete) مقاطعة أو مدينة تقع في الجانب الشرقي من طليطلة ومدريد، وفيها المدينة القديمة والمدينة الجديدة، وبها يمر الطريق الحديدي الذي يربط بين مجريط والقنت على الساحل الشرقي من المتوسط.
مخطوط ابن عذاري ص 76 ـ الحلل السندسية ثان ص 48 ـ الغزال: نتيجة الاجتهاد ص 7 ـ 71.
Huici: P. 243 — 257

(4) يضيف ابن عذاري هنا قوله تأكيداً: ابن عم صاحب مرسية.

(5) هو أبو أيوب المتقدم تعليق رقم 2 ص 319 .

(6) لم نقف على من ردد ذكر هذا القائد ولعل له صلة ببطن مقدام ابن ظريف، ابن خلدون، المجلد السادس ص 163 .

(7) لم تفت البيذق الإشارة لمقتل أخت ابن مردنيش وتذكر بعض المصادر خطأ أن المقتولة هي ابنته. البيذق، أخبار المهدي ص 126 ـ ابن عذاري ص 76.

(8) يقصد بالبحيرة هنا: المكان العروف تحت اسم (la Albufera) بمرسية.

فلما توسط بهم البحيرة المذكورة غرقهم في البحر على أبشع حال، واشنَع مقال. واختل ذهن ابن مردنيش في أثر ذلك، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك، وعاد صبحه كالليل الحالك وفزع من اذايته اهلُه وقرابته، وشيعته وحامته[1] واختلت جبايته وحالته.

وعند اتصال هذا الفَتح واليمن الشامِل، والنصر والحصار المتواصل، أجاز الخليفة الأرض أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى جزيرة الأندلس عساكره الموفورة المؤيدة، منجزاً عدته التي كتب بها للموحدين ـ أعزهم الله ـ ومردفاً لأخيه في نصره وشد أواخيه على عدوه، وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان من عام ستة وستين وخمس مائة. ووصل إلى إشبيلية يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بعد صلاة الجمعة على ما أذكره بعد[2] هذا مفسراً [271] إن شاء الله تعالى، فاتصل خبر اليمن بوصوله وحلوله بكتابه الكريم، المبشر العظيم، إلى السيد الأعلى بالمحلة المؤيدة، فتمادى على غزوته، وازدادت القلوب حبّاً في الغزو ثقة بهم من الله تعالى في نصرته، على عادته لأهل هذا الأمر العزيز وبركته، ثم أخذ السيد الأعلى في الانصراف عن هذه الغزوة إلى الحضرة العلية حضرة أخيه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وللقائه بعد الفتح الذي ذكرته. وكان انصرافه في آخر شهر ذي الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة. ووصل إلى اشبيلية ظافراً منصوراً على أعدائه، واجتمع بالخليفة فيها على سرور كامل، وظهور حافل، وبروز للنظارة لم يعهد في الأزمان الأوائل، في شهر محرم في الخامس عشر من عام سبعة وستين وخمس مائة المؤرخ.

قال المؤلف لم أعرض لذكر أخبار ابن مردنيش في هذا التاريخ، ولا لذكر الثوار الأندلسيين، إذ قد شرحت ذلك في التأليف المسمى بتأليف (ثورة

---

(1) يعني اصدقاء الذين كانوا يحومون حواليه.

(2) صفحة ٢٠٣.

المريدين) فاغنى عن ذكرهم في هذا التاريخ وإنما ارخت غلبة الأمر عليه[1].

ولما اجتمع السيد الأعلى أبو حفص باشبيلية مع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أخيه بعد غزوته المؤيدة، ووصل معه عسكره من الموحدين والأجناد الأندلسيين، فأنعم عليهم أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه [272] ببركةٍ عظيمة العدد، وكسوة كاملة للرأس والجسد، وحفَّ بهم التقريب باللسان وبالجود باليد، والإحسان اليهم، ولِلأهل والولد، وأحسن الأمر لكل من وصل معه من الأجناد الأندلسيين الشرقيين المبادرين لهذا الأمر العزيز وسلموا وبايعوا ورُحب بهم وأنزلوا على ما أشرحه بعد هذا إن شاء الله تعالى.

(1) عندما كان ابن صاحب الصلاة يعتذر عن هذه الاستطرادات كان يعطينا تعريفاً واضحاً لموضوع كتابه (ثورة المريدين).

الخبر عن اقامة امير المؤمنين ابي يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بحضرة مراكش بنية الغزو مريضاً بعد تقدم السيد الاعلى اخيه ابي حفص بالعسكر المؤيد الى الأندلس، ونظره - مع ضعفه - فيما قلده الله تعالى من أمور المسلمين، وذكر ما اندرج في المدة المذكورة من استدعاء[1] العرب من افريقية والولاة بها ووصولهم اليه وفضائله وصدقاته واعطياته ومقدماته لهذه الغزوة الحافلة التي استولى فيها على ابن مردنيش واحيى الأندلس وامنها. وحمى مواسطها وثغورها واسكنها، وقصّر اشبيلية واستوطنها.

قال الرّاوية: وإن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يزل ينظر في الغزوة التي وعد بها الموحدين على ما تقدم [273] ذكرها مع ضعفه، فإن مرضَه كان من أول سنة خمس وستين، واستقلّ وخرج إلى الصلاة يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وخمْس مائة، فكان غيبه[2] أربعة عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، لكنه كان يدخل إليه وزيره أبو العلا ادريس بن أبي اسحاق بن جامع يعلمهُ بالمخاطبات الواصلة، والأخبار المسلية السارة المتجاملة، ويحضر معه الأطباء الأولياء أبو مروان بن قاسم[3]،

(1) راجع التعليق رقم 3 ص 172.
(2) في ابن عذاري ص 77: كانت علته الخ.
(3) هو الوزير ابو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي من أهل التبريز في صناعة الطب وقد توفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة. ابن أبي زرع، القرطاس ثاني ص 76.

وأبو بكر بن طفيل[1] وغيرهما[2] ـ ينظرون فيما يصلح به من الشَّراب والغذاء وجميع الأشياء، وكذلك يدخل معهم الفقيه أبو محمد عبد الله المالقي إذْ كان عنده في مسلاخ[3] وزير وأَمين، بتشيُّخه على طلبة الحضر، يثق أمانته بعلمه منه حسن النصح والتدبير، ويتابعهم اشياخ الموحدين كالشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر[4]، وأصحابه أعزهم الله يحققون الدُّعاءَ له بالشفاية[5] إذا جلسوا، ويقومون إلى الخروج وقد اقتبسوا اليمن في عيادته منه واختلسوا، فمتى طرأت مخاطبة من السيد الأعلى على أخيه في معنى الغزو أمر على حاله بالجواب عليها، وإذا وصلت شرح له ما اتَّصل لديها وغير ذلك عليه السكوت سائل[6] أهل الوفود يوعَدون عليها اللطف من الله والوقوت[7]، وفي هذه المرة استدعى العرب [274] وخاطَبَهم بهذه القصيدة على حاله المذكورة، يحرضهم فيها إلى الجهاد ويستدعيهم إلى الغزوة العظمى التي في نيته بأوفر الاستعداد، ويصفهم فيها بما هُم فيه من الشهامة والزعامة، ويستدنيهم غاية الاستدناء[8]، ويناديهم غاية النداء، ويستقربهم بالقربى التي تَجْمَعُهم في قيس عيلان وانهم السيف الماضي في نصر الدين وحمايته،

(1) من وادي آش، وهو من مشاهير الأطباء وأهل الحذق والنظر في العمليات الجراحية وقد توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وهو مؤلف الكتاب الأشهر: «رسالة حي بن يقظان... المصدر السابق».

(2) كان في جملة أطباء يوسف بالإضافة إلى علي بن قاسم وابن طفيل، الوزير أبو بكر بن زهر الذي كان يتردد على الحضرة، كما كان من أطبائه بعد أبو الوليد بن رشد. القرطاس ص 176 ـ 177 ـ 178 ـ 179 ـ 180.

(3) يعني في رتبة وزير، وقد ورد في حديث عائشة: «ما رأيت امرأة أحبّ إلى أن أكون في مسلاخها من سودة» كأنها تمنت أن تكون في مثل هديها وطريقتها. (لسان العرب).

(4) أظن أن هذا الذي ينعته البيذق بالشرقي ويعتبر من أهل دار المهدي وقد امتاز ـ من خلال الكتاب ـ بأنه الخطيب المقصع الذي يتحدث في الأوقات الصعبة، سواء باللسان العربي أو باللسان الغربي (بالغين). المن بالإمامة 384.

(5) كذا في الأصل، ولم نقف على مصدر هكذا لشفى، فيظهر أن الصواب الشفاء.

(6) هنا كشط لم نتبين حروفه في المخطوط ولعله: (ومسائل).

(7) كذا في الأصل ولم نهتد لمعناه كما يجب.

(8) راجع التعليق رقم 3 ص 111.

وقمع المارقين، ودفع الكافرين، وهي من قول ابن طفيل[1]: (طويل).

أقِيمُوا صدورَ الخَيْلِ نَحْوَ المَغارب
لغزْو الأعادي واقْتِناء الرَّغَائِب
وأذكوا المَذاكِي العادياتِ على العِدَى
فقد عرضَت للحرب جُرْدُ السَّلاهب
فلا تُقتنى الآمالُ إلَّا مِنَ القَنَا   ولا تُكتَب العَلْيا بغَير الكتَائِب
ولا يَبْلغُ الغاياتِ إلَّا مصمِّمٌ   عَلى الهَوْلِ ركَّابُ ظهورَ المصاعب
يَرَى غَمْرةَ الهَيْجَاء أعْذَبَ مَشْرَبِ
وان أعرضتْ زُرقاً جِمَام المَشَارِبِ
ويأنَفُ إلَّا مكسَباً مِن حُسامه   ويُعْرِضُ عزّاً عن جَميع المَكاسِب
ألا فابْعَثُوها هِمَّةً عربيَّةً   تحُفُّ بأطْرافِ القَنا والقَوَاضِب

(1) عَرف الذين يهتمون بتاريخ أبي بكر بن طفيل طائفةً من آثاره الشعرية في التغزُّل والحكمة والزهد. والرثاء متناثرة في بعض في بعض معاجم الأدب الموحدي، كما عرفوا أرجوزته الخالدة في الأمراض وعوارضها وعلاجها، ولكن المصادر تخذل دائماً عندما يريد المرء أن يستقصي سائر شعره، ولكثرة ما قوي الاهتمام بآثار ابن طفيل الأدبية، حرصت على إرسال هذه القصيدة للمهرجان الذي أقيم ببيروت عن ابن طفيل في دجنبر 1961 وقلت آنذاك «أنها ظلت ـ فيما نعلم ـ سجينة الظلام» بيْدَ أن الزميل الدكتور عبد العزيز الأهواني أثناء تعريجي على القاهرة في حديثٍ عن الدكتور غريسه غوميس ذكر أن قصيدة ابن طفيل هذه كان ظفر بها الدكتور غوميس عندما كان ينوي أن يقوم بنشر كتاب ابن صاحب الصلاة وأنه قام بنشرها في مجلة المعهد المصري للدِّراسات الإسلامية وقد نقل كوتي ان كازيري (Casiri) تكلم عن شعر لابن الطفيل في الطب وقال أنه يوجد بالاسكوريال، هذا وتوجد هذه الأرجوزة في خزانة جامع القرويين المراكشي، المعجب، ص 240 ـ 241 ـ 242 ـ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة عند ترجمة أبي العباس الصقر ـ أرجوزة ابن طفيل في الطب، مسجلة بخزانة جامعة القرويين بفاس تحت رقم 3158/50.
مخطوط ابن عذاري ص 107.
Leon Gautier; IBN Tofail sa vie ses Oeuvres P. 24 — 25.
مجلة المعهد المصري عدد 1953 ص 25 ـ 26 ـ ٧٢ ـ 28 ـ 29 ـ 32 راجع التعليق رقم 3 صفحة 433.
حي بن يقظان لابن طفيل دراسة وتحليل جميل صليبا وكامل عياد 1962 صفحة 18.

أفُرسانَ قَيْسٍ مِنْ هِلال بْنِ عامر
وما جَمَعتْ من طَاعنٍ ومُضارب
لكُم قبَّةٌ لِلمَجْدِ، شدُّوا عِمَادَها   بطاعةِ أمْرِ الله من كلِّ جانب
وقُوموا لنَصْرِ الدِّين قومةَ ثائرٍ   وفيئُوا إلى التَّحْقيق فيئةَ راغِب
دَعوناكُمُ نَبْغِي خَلاصِ جَمِيعكم   دُعاءً بَريئاً مِنْ جميع الشَّوائب
نُريدُ لَكُم ما نبتغي لنُفوسِنَا   ونؤثِركُم زُلْفى بأعلى المَرَاتِب
[275] فلا تَزْهَدُوا في نَيْلِ حظِّكم الَّذي
لكُم فِيهِ فوزٌ مِن جَمِيع المَعَاطب
بِكُم نُصِرَ الإسْلَامُ بَدْأً، فنَصْرُهُ
عَلَيْكُم وهَذَا عَوْدُه جِدٌّ واجِبِ
فقُومُوا بِما قَامَتْ أوَائِلُكُم بِهِ   ولا تُغْفِلوا إحياءَ تِلْكَ المَنَاقِب!
وقَدْ جَعَل الله النبيَّ والـه   ومهديَّه مِنْكُم بِلَا عيْبِ عائِبِ
وفزْتُم بتَخْصِيص الخَلِيفَةِ بَعْدَهُ   ونسْبتِهِ الدُّنْيا بزُلْفَى الأقارِبِ
وطائفة المَهْدِيِّ منكُم، وإِنَّهَا   لتَحْنُو عَلَيْكُم باتِّصالِ المناسِب
ومَن ذَا الَّذِي يَسْمُو ليَبْلُغَ شَأوَكُم
إِذَا كُنْتُم فَوْقَ النُّجُومِ الثَّوَاقِبِ
نَصَحْنَاكُم والنُّصْحُ في الدِّينِ وَاجِبٌ
بِمَا لَكُمُ فِيهِ صَلَاحُ العَوَاقِب
وخَاطَبَكم عنَّا بَيَانٌ مُحَصْحَصٌ[1]   يشُقُّ سَنَاه داجياتِ الغَيَاهِب
هُوَ الأمْرُ أمْرُ اللهِ مُنْجٍ ومُسْعِدٌ   لِكُلِّ منيب ناصِح الجَيْبِ تائِب
وفيه ذُعَافٌ للعُدَاةِ إذَا انْتَحَى   تمَكَّنَ مَا بَيْن اللَّهى والتَّرائِبِ
وانتُمْ عَلَى التَّخْصِيص أجدرُ مَنْ بَنَى
بِذِرْوَتِه بَيْتاً رفيعَ الذَّوائب
فإِنَّكُمُ قَيسٌ، وفُرسانُ رَبِّنَا   عَلى الأرْضِ من قَيسٍ بغَيْرِ مُغَالِب

(1) قرأها غوميس محصص، مجلة المعهد المصري ص 31.

خُذُوا حَظَّكُم فالأمرُ جِدٌّ، وإنَّمَا   يَكُونُ بقَدْرِ الجِدّ قدْرُ المَناصِب
وقدْ فَازَ بالتَّقْدِيمِ مِنْكُم مَعاشِرُ
بِما قدَّمُوهُ من حَمِيد المَذَاهِب
تحُثُّ بِهِم نَحْوَ البِدَارِ إلى الهُدَى   عتاقُ جِيَادٍ أو عِتاقُ نَجَائِب
فطارُوا إلى الدَّاعِي سِراعاً كأنَّهُمْ   قِداحُ تَلقَّى الفَوْزَ مِنْ رَمْي ضارب
فخصُّوا مِنَ التَّكرِيم والبرّ بالَّذي   يَكُون جَدِيراً بالوَليّ المُصاقِب
فنالُوا مَحَلَّ السَّبْقِ فانفسَحت لَهُم   رياضُ الأماني سائحاتِ المذانب
[276] وقَدْ شَاهَدُوا مِن حُرْمَةِ الأمْرِ ما قَضَى
لَهُم بأمانٍ من جَمِيع النَّوَائِب
فما لكُمْ والنَّوْمَ عنْ خَيْرِ همَّةٍ   تقلّص أفْياءَ الشُّؤونِ الجَواذِبِ
وتَعْطِفكم[1] بالمَشْرَفيةِ والقَنَا   مَنادحُ عِزٍّ ساميَاتُ المَطالِب
وما هِيَ إلا دعوةٌ عزَّ ذِكْرُها   فعزَّ بِها في اللهِ كُلُّ مُصاحِب
حَذَارِ! فإعْراضُ الفَتَى عَنْ نَجاتِهِ   وتَضْيِيعُه للحَزْم إحْدَى المعايب
وما الحَزْمُ إلا طاعَةُ اللهِ إنَّها   هيَ الحَرَمُ المَنَّاعُ مِنْ كلِّ طالب
نعُدُّكُمُ السَّيْفَ الَّذِي لَيْسَ يَنْثَنِي
إذا ما نَبا سَيْفٌ براحةِ ضارِبِ
ونَجْعَلُكُم صَدْرَ القَناةِ إذا غَدَتْ
تأطَّرُ ما بَيْنَ الحَشَى والتَّرائب
وقَدْ كَانَ مِنْ أقْوالِكُم ما عَلِمْتُمُ
فإنْ كانَ فِعْلٌ فالرَّجَا غَيْرُ خائِبِ!
ولَيْسَ خَطِيبُ الصِّدْقِ مَنْ قالَ فانْبَرَى
ولكِنَّ فِعْلَ الحُرِّ أصْدقُ خَاطِب
وما خُلُقُ الأعْرابِ إخْلافُ مَوْعِدٍ
ولكِنَّ صِدْقَ الوَعْدِ خُلْقُ الأعارِبِ

(1) كذا في الأصل وقد قرأها غوميس (وتعطيكم) عطفاً على تقلص، وضبط منادح (مفاوز) فتح الحاء.